ترابط الوحدات الخطابية وتحولاتها في كتاب المساكين "لمصطفى صادق الرافعي"

د. سليم سعدلي
جامعة برج بوعريريج

تقديم: شيّد الرافعي في حكاياته التي ينطوي عليها كتاب المساكين جسرا بين الغني والفقير، في وقت اشتاقت إليه الإنسانية للرحمة والعطف، لذلك جمع الكِتاب بين العزاء والرأفة وبين ثراء اللغة وروعتها، فإني لمّا رأيت ألفاظا صارت للبلاغة عنوانا، يُحْتاَج إلى بيانها، والتفتيش عليها في مظانها، إذ كان اعتماد الكافة على قراءته، واعتدادُهم بدراسته شحيحا، فرأيت بعضهم قد طالعه وبحث فيه، أخلّ بأكثر المقصود وفرّط، وبعضهم قصرّ وما بصر. وليس ذلك طعنا عليهم، ولا إنكارا للفضل المشار به إليهم، بل هم السادات في أعْلى ذِروَة العِلم. لكن دعت الحاجةُ إلى تتبع هذا البناء الخطابي واستقصاء تحولاته، ونقله إلى هذه الأوراق، لأستذكر بها ما غاب وقت التدريس وأجلُوَ بها صدأَ الخاطرِ من عوارض التبليس وأرفع بها غواشي التشويش وأكفأ بها مؤنة الطلب والتفتيش، وليس لي فيه إلا الجهد والترتيب والتحليل، "وما توفيقي إلا بالله عليه توَكلتُ وإليه أنُيبُ".

الكلمات المفتاحية: التناسق الخطابي، تحول الحكاية، رصد الواقع بالكتابة، وظيفة الأساليب اللغوية في تلاحم الخطاب، الحجة الإبلاغية(الحجاج الأدبي والإصلاح الإجتماعي).

1-الفاتحة وتحقيق التواصل: تعدُّ البداية التي استهل بها الرافعي* حديثه عن "الشيخ علي" على حد تعبيره" هو رجل تراه في ظاهره من الدنيا ولكن باطنه يلتحق بما وراء الطبيعة، وكان ينبغي أن لا يقوم مثله على مسرح الخلق إلا ممثلا، وأن لا يمثل إلا الوجه المطلق من الحياة..."[1]، منطقة استراتيجية لتَّحقيق التواصل بين طرفي الرسالة الكاتب(المتكلم) والمخاطب(القارئ)، والتأثير على المخاطب بأسره، فإنَّ تأثيرها يسري على كتاب "الرافعي" بحيث تجعل أجزاء التشكيلة الخطابية** التي تحكي معاناة الانسانية منتظمة المبنى ومتسقة المعنى بما قبلها مما يضمن استمرار التواصل حتى النهاية[2]، والنص "ذو بوابة ومجال ووسطاً قد يطول وقد يقصر ونهاية وهي نقاط يمكن التوقف عند أي واحدة منها وفصلها عن غيرها ولكنها لا يمكن أن تفهم معزولة عنها فكل مكون من مكوناتها يمثل

معلماً أو نقطة تتقدم بها الأحداث إن كانت حدثاً وتعدد بها الذوات إذ كانت ذاتاً الخ وهي يمكن العودة إليها عن طريق الإحالة وبالقياس عليها تجري ترتيب عالم الخطاب وبناء النص بالاستتباع"[3]. وهذا الاستتباع المحقق عبر حكايات "كتاب "المساكين" الذي يتفرع بدوره إلى نصوص أخرى يؤكد العلاقة الوثيقة بين الوحدات الخطابية وانسجامها ، يصبح فيها الخطاب المعرفي صورة منسجمة ،أو خطاباً متماسكاً أو مجموعة خطابات ثابتة يتم التحقيق بواسطتها عن هوية الأديب ، شكله ، خطابه, ذاته المهمشة التي غرقت في تأويلات فاسدة حكمت على الخطاب بالانفصال[4]. ويبدو هذا جلياً عند "الرافعي" ؛ إذ نجده يولي اهتماما كبيراً بفاتحة تقديم "الشيخ علي". كما يصوره هذا المقطع:" خلق الرجل نشيطا ، مهزوزا ، راميا بصدره ونحره معترضا في زمام القدر كأنه صورة الفكر الذي يمثله ، وكأنه أسلوب قائم بنفسه في بلاغة الطبيعة..."[5] ، يوحي هذا التقديم الافتتاحي بأهمية الألفاظ الأولى التي تصور "الشيخ علي" في أبهى حلّة ، ففي الغالب يركز المبدع كل جهوده في هذه الجملة ، إذ يكون ما بعدها غالباً تفسيراً لها ، وتمثل كذلك المحور الذي يدور عليه النص القصصي فيما بعد ؛ إذ تتعلق الأجزاء الباقية من النَّص بالجملة الأولى بوسيلة ما[6]. يتميز هذا النص بتفرده في الابتداء ، فقد استفتحه بألفاظ لا تخلو من الفلسفة اليونانية القديمة ، كما في قوله: "وأحسبه في نظره إلى الخلق يتوهم أنه رحالة خرج من بعض الأفلاك التي تعرف بالعقول العشرة* فهبط من أشعته على الدنيا ؛ فهذا العالم شيء جديد في نفسه وهو شيء جديد في العالم ، ينظر إليك كما تنظر إليه ، وما حياة الفلاسفة إلا اختيار الموت..."[7]. في هذا المقطع ، وبالخصوص (خرج من بعض الأفلاك التي تعرف بالعقول العشرة) نلتمس براعة الافتتاح المضمن برؤية فلسفية ؛ لأنَّ نص الفاتحة يتضمن قضايا إنسانية يريد المتكلم أن يحكيها عن "الشيخ علي" ، وهي تتمثل في قضايا تصور معاناته في مسرح الحياة ، كقوله: "فهو حليم لنفسه غضوب لنفسه ، وكذلك هو في الخفة وفي الوقار ، والضحك والعبوس والزهو والانقباض ، وفي كل ضدين منهما لذة وألم..."[8] ، هذه الصفات يريد الرافعي تبليغها بُغية تشويق السّامع الخبر الذي سيخبر عنه السّارد ، خاصة بعدما صارحه بأنَّ الصفات التي اعترت الشيخ كانت كلها أضداد تحكي تجربة الحياة بصفاءها وكدرها ، وبذلك يتحدد الفهم المعرفي للنص.

يمكن تصنيف هذا النّص حسب المنظور الفكري اللغوي العربي بوجه عام الذي يقسم الكلام إلى خبر وإنشاء حسب ما ورد في الجمل فهي الموجه الأساسي للنص ويتمثل الموجه النصي للنص في علامات الاستفهام [أهو الذي يسمى الشيخ علي !] ، [وما الجنون إلا نبوغ فوق الطاقة ، ولا النبوغ إلا جنون رقيق !] التي تسعى لإبداء وإظهار مشاعر تعجبية من حدث

ما تفيد المخاطب وكذلك في الاستفهام(هل سمعت برجل ، وهل تعلم أنت؟ وهل تدري أفلا ترانا نخادع؟ ، يشير كل هذا إلى الإخبار ومنه تكون فاتحة الحديث عن "الشيخ علي" خبرية.

تعد الضمائر المذكورة التي توضح الشخص الأول: "الشيخ علي" ، كما هي موضحة: (إني محدثك(أنا) بسطته(أنا)، لكني(أنا)، متلقيك(أنا)، محدثك(الكاف= أنت)، نفسك(أنت) عليك(أنت)، يحضرك(أنت)، أنت ، لك ، متلقيك(أنت). وكذلك أسماء الإشارة تحيل على التخاطب:situation de communication؛ أي ضمائر الشخص الأول (المخاطب والشخص الثاني (المخاطب)، كما في الأمثلة الآتية: قال الشيخ علي: وإني محدثك الآن حديثا يشفى نفسك من الخبر ، ويفتح عليك أبوابا من العبرة والموعظة ويحضرك طرفا من الدنيا بأقداره وعلله ومذاهب حكمة الله فيه كأنما أنت شاهد أمره... . وهذا معنى بسطته لك آنفا ولكني متلقيك بمثاله من رجل وإمرأة..."[9] وهذه الأقوال تدل على وضعية تحاور مفترض بين الكاتب "الشيخ علي" أو "الرافعي" والمتلقي وهي في واقعها تهيئة للاستدلال الخطابي ، أو لإلقاء الطرح المراد إرساله تبريرا للحدث الذي سيقصه "الشيخ علي" والذي يكون معللا بكل الأدلة التي تؤيد فكرته[10]. في الفاتحة تكون هذه الأدوات الخطابية النواة الأساسية في النص "وتقوم شبكة من الوسائل اللغوية بالربط بين هذه النواة وبين الجمل الأخرى. فالنَّص يتكون من جمل متتالية قائمة على التراتب وفعلها في صيغة زمن الماضي"[11].

ويواصل حكيه عن الشيخ بذكر:" كأنه جزيرة قائمة في بحر لا محيط بها إلا الماء ، فلا صلة بينهما في المادة وإن كانت هي فيه ، فالناس كما هم ، وكما هو يرونه من جفوة الزمان ، وهو والدنيا خصمان في ميدان الحياة..."[12] ، والغاية من هذا الالتفات من الواقع إلى عالم الماضي الذي يصور بؤس للشيخ ، هذا الالتفات يزيد التفريغ العاطفي لإستمالة وإغراء المتلقي باعتباره ذهنا وعاطفة (عقلا وقلبا)، "كون هذه الصور والأساليب البلاغية تقنيات تستدعيها جمالية الإيصال والتلقي"[13] لكسب تأييده وتوافقه الضمني أو الصريح الذي سيحصل في النص وهو إشارة إلى أحداث مرتقبة.

يمكن اعتبار الفاتحة في بعض المواضع إنشائية لتضمنها عبارة ((قال الشيخ ، حدثني أحكي)) التي تتضمن فعل الحكي ، وهي جملة خبرية تتضمن الأسلوب الإنشائي لاحتوائها على فعل أحكي المتضمن معنى الزمن الماضي. وقد كان "الرافعي" ، كما أشرنا من قبل ذا حسن فريد بوقع الكلمة وكان يميل إلى التدقيق واستمالة السامع باستعمال الألفاظ المناسبة للأحوال المناسبة ، ملائما بين اللفظة وما يليها ، يوزع البدايات التي تحكي عن الشيخ علي بحيث تؤدي إلى بناء خطابي لا يخلو من الانسجام التام بين الجمل ، والموضوع الذي لم

يخرج عن رسم بؤر الحياة التي ركب موجتها "الشيخ علي" ، وقد ساعدته على ذلك ثقافة لغوية واسعة وسيطرة عجيبة على معجم المعاناة من مفردات لا تكاد تفلت بين مخالبه لحظة يحاول الإمساك بها.

2- **متن الحكاية ودوره في تناسق أجزاء الخطاب**: يتوسط كل حكاية وردت في كتاب المساكين* ، مشاهد سرديّة يتكرر في رؤوسها المركب الاسمي الذي يتكون من أداة النداء والمنادى واسم إشارة هذا ، والمنادي وهو المتكلم ، يتضافر في هذا المركب الاسمي النداء والتعجب ، كما يوضحه هذا المقطع: "يا ويلنا ! ألا رحمة في قلبك فتجودي علي بما لا بأس عليك منه ؟ يا رباه ! مسكينة مسكينة !يا هذا)، والغرض من هذا التنبيه ، وإمعان النظر في هذا الوصف الذي يصور الفتاة المسكينة ، لقد أدت هذه الإشارات ودورها في نقل المعنى والإيحاء بالجو النفسي الذي يصورة قسوة القلب.

تتحول شفرة النص في حكايات الرافعي بتحول المرسل للنص ؛ أي أن المرسل الأول لنص الفاتحة هو الرافعي والمتلقي هو نفسه ، يتلقى هذا النَّص الذي لم يصرح به إلاّ في قوله: "وكذلك أعرف "الشيخ علي" فهو أجهل الناس في الدنيا وأجهل الناس بالدنيا ؛ كأنه من هذه الجهة ممتلخ(مسلوب) العقل..."[14]. والمتلقي هنا يتحول هو بدوره إلى مرسل لنص لا يكاد يخلو من الأضداد التي تعمل على تعريف الشيخ علي ، من خلال ما تضمنه المقطع اللاحق: "وكذلك أعرف ، "الشيخ علي" ، فهو لا يرى في الأشياء غير ما خصته به الطبيعة ، ولا يرسل عليها إلا أشعة صافية من عينيه الضاحكتين ، لم تخالطها ألوان النفس ولا زفرت عليها أنفاس القلب..."[15] ، لأنَّ البناء الخطابي الذي أنتجه الرافعي يقوم على استراتيجية تتراوح بين المدح والذم ، كما هو موضح في المقطع الأول والثاني ، إنها آلية هادفة ، تنهض على الإقناع باستدلالات خاصة تتمثل في السّخرية من مصير "الشيخ علي" وهو بين مخالب الحياة لا يعلو على أمواجها إلا عقله الراجع ورزانته التي لا تخالطها ألون النفس البشرية.

جاء هذا الوصف لملامح "الشيخ علي" لينقل الأثر الذي انطبع في نفس الكاتب إلى سامعيه فيزيد الموصوف قوة وجلاء ، والتي تفيد التماسك النصي فاتحة البداية والمتن ؛ أي تتمثل في وجود الرابط المتمثل في الجامع الأساسي بينهما وهو ذات المتكلم ، إذ يمثل الحقيقة الفزيائية القارة التي يصدر عنها النص[16]. ولا شك أن الصورة العامة لملامح البناء الخطابي في الكتاب تبعث على تعالق مقاطع المتن ، ("يا ويلنا ! يا رباه ، يا هذا)، وتأكيد "عناية بالأمر وإرادة الإبلاغ في التنبيه والتأثير"[17]. وبالتالي فإنَّ أسماء الإشارة تقوم بالربط القبلي والبعدي وإذا كانت أسماء الإشارة وحروف النداء بشتى أصنافها محيلة إحالة قبلية ، بمعنى أنها تربط

جزءً لاحقاً بجزء سابق ومن ثمة فهي تسهم في اتساق النصوص[18]. وتعد كذلك الأفعال المذكورة ، وحرف الاستفتاح والنداء في الفاتحة ، النواة الأساسية في النص وتقوم شبكة من الوسائل اللغوية بالربط بين هذه النواة وبين الجمل الأخرى ، فالنَّص يتكون من جمل متتالية ، قائمة على التراتب واضحة بصورة خاصة في حالة العلاقات المتتالية أو المتناظرة بالشكل "A" "B" "C" ، تتكون من الكلمات المرتبة على مبدأ علاقة الصدق التي يؤديها المعنى الأخير في الخاتمة الذي يرمز إليه ، بالحرف(c)[19]. ومن خلال التحليل تظهر لنا أهمية البناء النصي بن فاتحة النص ومتنه ، بوجود علاقة شكلية ودلالية بينهما فالشكلية تتمثل في عامل الإحالة الرئيس المتمثل في استمرار لوجود ضمير المتكلم وهو "الرافعي". والدلالية تتمثل في وجود ترابط دلالي بين أجزاء النص[20] ، وذلك من خلال التناسق الحاصل بين المخاطب على مسار النص.

المخاطب في فاتحة النص يحيل إلى المخاطب في المتن المتمثل في الكاتب وتشترك صفة الشيخ علي في بناء الخطاب في كون الرافعي ذكر أنَّه يريد التعريف به ، ووضع بعض المواقف على لسانه. ويعد تكرار الألفاظ في رؤوس المقاطع النصية من قبيل:[وكذلك أعرف الشيخ ، وهذا الشيخ ، هذا هو الشيخ ، رجل كأنه...] عاملاً لغوياً من عوامل تجسيد الاستمرارية* في النص ؛ استمرارية نفس المتحدث عنه وقد استثمر المتكلم/السّارد هذا التكرار في الانتقال من موقف لآخر ، وهي كلها تتمحور حول موضوع تقديم الشيخ والكشف عن الأعمال الخالدة التي يتمتع بها هؤلاء الفلاسفة الذين يعيشون في السحب العالية من فضائلهم فيمطرون الكون بها. وتعدد هذه الألفاظ التي تبدأ بها المشاهد التي تحكي سيرة الشيخ علي العطرة ، إشارة إلى تعدد صور المصير الذي انتابه وهو في منعرجات الحياة ، مرة تهوي به ومرة أخرى يعلو بنقاوته التي رصدها "الرافعي" في كل مشهد ، وتقوم أحيانا على مبدأ الاستخفاف ممن يزاحمون أصحاب الملك ، على طاولة الجشع والأنانية ، فتراهم يجلهون قيمة الزاهد والمفكر الذي قد يرأف به الله والبحر ، كما في قوله: "رجل حظ الله أوزاره وكتب عليه أن يكون فقيرا من المال ، وماذا يبغض الناس منه وماذا يعادون وهو في ذلك البحر زورق قد سقط مجذافه فليس له ما يضرب به وما يسخر به ، وإنما تدافعه رحمة الله حيث اندفع والبحر لا يعادي الزورق الذي يجري فوقه ولكن يعادي المجذاف الذي يديره ههنا وههنا"[21] وهكذا تحمل ألفاظه من المعاني أكثر ما تجود به الحروف.

يبدأ الرافعي عادة خطابه برثاء الحظ الذي صادف الشيخ الذي يحرك حواس السامع اتجاه "الشيخ علي" ويختم المشهد الأخير بالشفقة والاعتراف بنزاهته ورحمة الله له وحتى الجماد

كالبحر الذي لا يعادي زورقه. وتكمن أهمية تكرار بعض الألفاظ (البحر ، الزوق ، الفقر ، غموض الحياة ، نفسه ، وكان الرجل ، بغض الناس) في بنائه لنص المتن الحكائي بُغية إنشاء التلاحم بين المقاطع النصية التي يكون هدفها واحد في آخر المطاف ، فهي "تمثل الوتد اللساني الذي تتفرع منه الدلالات ذلك أنه كل مرة يشعر القارئ باستنفاذ الدلالة والانتقال إلى دلالة أخرى فهو ينشط ذاكرة المستمع والقارئ"[22]. ومن جهة فإنَّه يحقق التماسك النصي بين المقاطع طلباً لدوام موضوع الحكي السيري الذي يرسم للقارئ سيرة الشيخ علي بصفاءها وكدرها. وبهذا تصبح العلاقة بين بداية حكاية "الشيخ علي" ومتنها تتمثل في إيصال "رسالة إجتماعية مشبعة بكل القيم الإنسانية" إلى المتلقي التي تحمل في طياتها كل معاني الهم الدنيوي المشترك ، وأنه لا يقدمها إلى قارئه من برج عاجي وإنما يخلط نفسه في ثوب الضمائر التي تعود عليه أحيانا ويحدث الشيخ علي حديث صديق إلى صديق ، فنراه لا يبخل إذا تحركت قريحته ، إن مالت نفسه إلى الجد جد ، أو إلى الهزل هزل ، فهو يريد أن يكون أسلوبه مطابقا للصور الشفافة التي يحتويها الواقع ، ويرفع نبض الحكي الأليم كلما اقتضت الضرورة والحكاية التي تماسكت أطرفها بأساليب بلاغية متنوعة ومتحولة من حين إلى آخر ، نخالها سريعة الإيقاع أبدع فيها الرافعي دون أن يغفل عن سخريته اللاذعة التي تعبر عن بطش الحكام بكنايات طريفة معبرة عن معاناة "الشيخ علي" أمام سطوة الزمن الذي تلاشت دعائم أخلاقه راجياً من الإنسان الظلوم أن يهذِّب من أخلاقه في عصر يرفع فيه السّافل ويخفض فيه العالي.

3- **التماسك النصي بين الفاتحة والخاتمة**: النهايات في معظم النصوص الإبداعية عبارة عن مفاجأة يباغت بها السّا قارئه ، فبينما كان في صدد عرض مواقف الحياة التي ركب موجتها "الشيخ علي" ، كان القارئ ينتظر مشاهد أخرى تحيط به أكثر ، يأتي الرافعي بعبارة تتضمن نهاية الحكاية في قوله: "وهل في الحياة أشد غموضا من رجل يرى ، أو كأنه يرى ، أن كل نعمة لم ينلها ، فهي مصيبة لم تنله ، وكل ما يعرفه من هذه الدنيا أنه يعرف كيف يتركها مطمئنا وعلى شفتيه من الابتسام تحية السماء لاستقباله ، ومتى هو فارقها انكشف موته عن حياته ، وصرحت هذه الحياة عن ضميره وخلصت من هذا الضمير كلمة هي معنى الرجل الذي انطوى عليه ، وكانت هذه الكلمة هي الحمد لله"[23]. يمكن تحليل هذا النص (خاتمة حكاية الشيخ علي) بالاعتماد على المستويين: "المستوى الشكلي والمستوى الدلالي"[24]. وعلى العموم خطاب الرافعي يقوم على ثنائية شبه ضدية على مستويين لمكون الجمل: العميق/السطحي فعلى المستوى الأول ثمة ثنائية: كقوله: في الفاتحة " لما ولد هذا الرجل ولعل الطبيعة يومئذ كانت في صميم الخريف ثائرة مجرودة غبراء ، قامت أمه عن نجم منطفئ

لا تعرفه الأرض"[25]، وقوله في الخاتمة "وصرحت هذه الحياة عن ضميره وخلصت من هذا الضمير كلمة هي معنى الرجل الذي انطوى عليه، وكانت هذه الكلمة هي الحمد لله"، نجد فيما سبق أن السّارد يستعين بثنائية الرثاء والمدح، كقوله: في الفاتحة: (قامت أمه عن نجم منطفئ لا تعرفه الأرض..). وقوله: في الخاتمة: (وخلصت من هذا الضمير كلمة هي معنى الرجل...). وهذه الحجج وإن كانت على شكل ثنائيات تترجم إحداها الأخرى وتكمّلها، إلا أنه في كل مفردة منها اختصار لجمل ولقول كثير يطول في معناه ويتشعب، فاختصر الرافعي على نفسه هذا، وأفسح للقارئ مجال التوسعة وملء الفراغ ليقنع نفسه بنفسه[26].

فالبرغم من حب الرافعي للشيخ عليه، فحديثه مفعم بالتهكم حين يخبرنا عن مسلسل الحياة الذي خاض معتركه، هذه الدنيا المسماة دار شقاء، ولكنه في الأخير يقرّ بأنه أسعد رجل حمد ربه رغم كل المصائب التي اعترته، ويرى الرافعي من خلال هذا أن الصبر يحفظ ماء وجه الحياة، فلولاه لم يكن الدين ولا غيره. "وقد علمنا أن كل شيء يسير فإنما هو يذهب في طريق يتهدى أو يعتسف، وكأن الأسف على أهل الشر لم يجد له طريقا في هذه الحياة إلا من ضمائر أهل الخير، وبهذا يضرب الشر أهله وغير أهله". وفي هذا الخطاب استعاض المتكلم كما رأينا صيغة المفرد ثم بصيغة الغائب، وأحيانا نجده يعمد إلى صيغة الجمع للحديث عن معاناة "الشيخ علي" بدل صيغة الإفراد"، كما يوضحه هذا المطقع:" وقد علمنا أن كل شيء يسير فإنما هو يذهب في طريق يتهدى أو يعتسف، وكأن الأسف على أهل الشر لم يجد له طريقا في هذه الحياة إلا من ضمائر أهل الخير، وبهذا يضرب الشر أهله وغير أهله"، في حديثه بالجمع أثناء ذكر الشر يقصد به تغليب الفرد، وهذا يعني أن الشيخ علي واحد من الجماعة، فلما كان موجود في الفرد فعوضه بالجمع[27]، والبعض الآخر يرى في صيغة الجمع "الاعتراف بالقصور والعجز"[28]، وكأنه يقول أنا الشيخ الضعيف وهذا من المبادئ التي يتكأ عليها الرافعي أو ما يسمى في البلاغة العربية بالالتفات.

والملحوظ أيضاً في الخاتمة جملاً فعلية ممتدة بواسطة الرابط الواو: (وهل في الحياة أشد غموض)، (وكل ما يعرفه) (وعلى شفتيه)، (ومتى هو فارقها)، (وصرحت هذه الحياة)، (قد أخرجتني وأقبلتُ)، وقد أداة توكيد تفيد مع الماضي التحقيق، ويغلب عليها عنصر الفعل الذي تكرر كما يظهر عدة مرات، ويشير هذا " التكرار إلى الحركة والتجديد وكما أنَّ صيغة الفعل هنا الماضي تتضمن المستقبل"[29]. لأنَّ اللجوء في الأخير إلى كملة "الحمد لله" الذي تضمن الدعاء على نعمة الذي الذي كان بذرة صالحة في الحياة، المتمثل في قول الرافعي: (وخلصت من هذا الضمير كلمة هي معنى الرجل الذي انطوى عليه وكانت هذه الكلمة هي

الحمد لله) يفيد هذا الختام الشكر والحمد في صداقة الشيخ ورجولته التي مكثت فيه على مر الأيام وشقاوة العيش ، وإذا أردنا التعمن في مسار الخاتمة أمكننا تتابع الحكي السريع " وذلك لغاية الإيجاز والتأكيد على الدلالة"[30]. المستشف من هذه الجمل السابقة أنها تتكون من ثنائية ضدية تقوم أولها على عرض كل المحن التي يجتازها الشيخ علي ، وأسف الكاتب عليه والذي يشهد في حكاياته مرارا أنه غدرت به الحياة ، إلا أنه في الأخير يعلن على علاقة تضاد ويرى بأن هذا الشر عبارة عن ابتلاء ومحاسن قدرت ليجتازها الشيخ علي الذي لم ينحن يوما أمام العراقيل التي صادفته ويقرّ السارد بأنه رجل بأتم معنى الكملة ، وتمثل هذه الاستراتيجية العنصر المنتج للنص ، والعلاقة التي تعمل على بناء أطرف الخطاب بين بداية الحكاية وخاتمتها ، "وبواسطتها ينمو تحرك التضاد الدلالي قد لا يعني التضاد على مستوى الحقيقة"[31] لأنَّ بنية الحكاية تترجم تلك الأحوال التي وقعت في حياة "الشيخ علي" ، الَّتي يقوم ببنائها الكاتب من أجل تعزيز الخطاب. هذه الالتفاتة البلاغية التي يرمقها القارئ على مستوى الحكاية ، تشير إلى إحياء اللفظ الذي يركب موجة قلب المعاني التي نجدها في كل مرة تضع الشيخ علي بين مسالك متعددة منها ما هو معبد ومنها ما ترك لاختبار صبره وحلمه ، في شكل قوة ابتدائية تعطي دفعاً إضافياً للنَّص ومن ثم انتقالاً بالنَّص من نمط تشكيلي إلى نمط تشكيلي آخر لا يخلو من التأثير الذي يعتري القارئ في كل مرة ؛ وربما هذا ما قصده الرافعي من حكايته وتعاطفه ، فكأنَّه يريد جواباً من شيخه رغم وضعه للخاتمة.

يتبين لنا أن البناء الخطابي بين الفاتحة والخاتمة يتمثل في تلك العلاقة التلازمية التي عرفتنا ببداية الحكي ونهايته ، وجعلتنا نرد على النقاد الذين نظروا إلى هذا النص على أنَّه كتابة واقعية حررها قلم الشفقة. ما عسانا أن نقول فالنَّص نابع من أديب وفقيه امتطى حصَّان اللُّغة العربية ، وإن كان رسم الواقع هو مسلكه فهذا لا يعني بأن كتابته أيضاً ستكون من غير رؤية وتأني.

تنطوي الوحدات الخطابية من مقدمة ومتن وخاتمة على وظائف عدة أذكر منها الوظيفة التَّداولية الَّتي تتمثل في تنبيه ذهن القارئ ، وذلك من خلال حكايات جانبية وأساليب لغوية منبهة كالاستفهام والنداء" وما تحسن به من المبادئ أن يصدر الكلام بما يكون فيه تنبيه وإيقاظ لنفس السامع أو أن يثير ما يؤثر فيها انفعالاً ويشرب لها حالاً من تعجيب أو تهويل أو تشويق أو غير ذلك.

يمكن القول أنه إذا كانت الفاتحة هي أول جملة تقذف بالقارئ في خبايا النص من خلال استراتيجية اغرائية تمكن من المحافظة على عملية الإبلاغ بإحداث عامل الرغبة فإنَّ الخاتمة

هي ما يبقى في ذهن القارئ لحظة انفصاله ؛ وهي إمَّا أن توسع أفق انتظاره أو أن تخرق انتظاره وتوقعه ، وإمَّا أن تخيب أمله لأنَّها لم ترق.

وتوحي لنا حكاية "الشيخ علي" بأهمية مخاطبة الآخر في تشكل النوع القصصي في تراثنا الأدبي ، ويعتبر هذا الحكي الشكل المتاح في عصر الرافعي والقادر على استيعاب الخطابات ذات الطابع الغير المباشر ومنها استمدت البصمة الإبداعية عند الكاتب مشروعيتها.

تحيلنا مشاهد "مشاهد حكاية الشيخ علي" بنمط الكتابة النثرية عند الكاتب ، إلى أنّ عملية تدوين حكاية الشيخ عامّة تتوجه بعد استرجاع ووعي يعمد إلى الاختيار والانتقاء والتحويل والتعديل.

ومعنى هذا أنّ المعاني الجوهرية للخطاب الحكائي عند الرافعي لا تكون بشكلها الخام في أي شكل من أشكال الخطاب السّردي ، وهناك في هذه الحالة مقدار من الخطاب مضّمن في السّرد فاندراج عناصر خطابية تفريعية في الحكي تجعل العناصر في النصّ مشدودة في الغالب إلى مرجعية المتكلم والمخاطب والخلفية التي استمد النصّ حضورها منها ، والتحويل الذي يخضع له النَّص السّاخر باقتضاء عناصر الحكي(الألم- المغامرة-الفكاهة) يجعلنا نتحدث عن النص الغائب غير المعلن والمضمَّن بلاشك ضمن النصون الجانبية للحكاية.

ونخلص أيضاً إلى أنّ النثر الحكائي عند الرافعي يرتبط بشكل نسقي مع الوحدات الخطابية ويعتبر هذا إحدى المكونات الحكائية للتداولية التي تبحث في الشروط المناسبة لأنواع الخطاب ، أي منسابة الخطاب للوحدات النصية(التماسك النصي) ، التي تبينت من خلال التحليل أنها مترابطة في ما بينها ، ويتضح ذلك من خلال البنيات اللغوية التي ترصدناها في النص لنسلم بتماسك وحدات الحكي.

تبين لنا أن روح القصّ عند الرافعي كانت استعدادا طبيعيا في نفس تحاول أن تعرف كنه ما ترى وأن تقول كل ما تعرف وأن هذه الروح(الشيخ علي) لا تفارقه في معظم ما كتب وتدل كتابته على أن الرجل كان يخوض غمار الحياة ، ويرسل النظر رائدا ويحيل الفكر حاصدا ، والرافعي لا تعوزه القدرة على خلق المواقف الشائقة المضحكة ووضع الرموز وخلق الحوار الذي يكشف عن الخصائص النفسية والعقلية للشخصية ، لذلك فقد تعددت الأشكال الفنية التي صبّ فيها حكاياته ، كما تنوعت أساليب التعبير عنها.

يدرك قارئ الرافعي أنه يعتمد على الفن الحكائي ، فقد كان يستحضر الماضي ويقصه في لذة وتذوق ، كشيخ كبير ذهب كثير عمره أو كما تجلس الجدة إلى حفيدتها ، وتوحي كلماته

المسجوعة أحيانا بجو تلاحم الخطاب ، فالظاهر أنه قد ترك للقارئ مذاهب للتصور في كل المعاني التي تجول في مخيلته.

الهوامش:

* - إن بشاعة تاريخ المشرقي ومحنه السّوداء ولّدت رغبة في الكتابة عند الرافعي خرقت حدود الواقع ، وأباحت للخيال السّردي التحرك بحرية تامة ، لذلك توجه الرافعي إلى المخيال الحكائي. أمام إساءات القدر الغادر والماكر التي صادفت الشيخ علي ، وعلى الذاكرة السّردية أن تجد وسيلة أكثر مضاء لردّ الاعتبار للذات المخذولة ، وكانت الوسيلة الوحيدة الممكنة الناجعة ، هي الانتقام إبداعيا ، لماذا إبداعيا ؟ ربما لكون فعل الحكي يساهم في تخليد الإنسان ، هكذا تم تصوير "الشيخ علي" والتمثيل بصورته التاريخية. ومن عيوب الكتب العربية أنها لا تتسع للمتن الأدبي الهامشي بل إنّها تكاد لا يتسع إلاّ للمتن الأدبي الذي يسير في ركاب السلطة ويمسك بتلابيبها. ومن هنا كانت شعلة الكتابة عند الرافعي التي بقيت وفية للمتون الهامشية التي ترصد لنا واقع الحياة المشرقية ومنه حكاية "الشيخ علي" وغيرها من الحكايات اليتيمة التي لم تنكسر أمام الأنواع الأدبية الأخرى التي أنتجها أصحابها. إنّه قلم الرافعي الذي لا ينكره إلا مكابر ، اعتاد أن يسير في اتجاه الواقع ، والذي لا يعجز عن فهم الحقيقة النسبية.

ينظر: فؤاد زكريا ، الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة ط1 ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة- باريس 1986 ، ص19

1 - مصطفى صادق الرافعي ، كتاب المساكين ، دار صالح تلانتيقيت للنشر والتوزيع ، نهج سي الحواس ، بجاية ص 22.

** - يسعى فوكو في حديثة عن عواقد التشكيلة الخطابية إلى التركيز على مصطلح التناسق-الانسجام-الترابط وهذا ما تنقله لنا مقولاته المقتبسة: " لتحديد مجموعة من العلاقات بين عدد من العبارات ، لا بد من التركيز على شكلها ونمط تسلسلها وترابطها". "لأجل تجميع العبارات الخطابية في وحدات حقيقية ، ينبغي وصف تسلسلها وتتابعها ووصف أشكال التوحيد التي تظهر بها: كوحدة المضامين الفكرية وتماثلها وتنتسقها. من الأنسب بالدرجة الأولى أن تفترض أن فكرة محورية ما قادرة على أن تستقطب مجموعة من الخطابات وتشد بعضها إلى بعض وتحركها ككيان عضوي واحد ، له حاجياته وقوته الداخلية وطاقاته في البقاء والاستمرار".

ينظر: ميشال فوكو ، حفريات المعرفة ، تر: سالم يفوت ،1987. مبحث التشكيلة الخطابية(وحدات الخطاب) ط2 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، ص 34-36.

2- ينظر: فهيمة لحلوحي ، استراتيجية الخطاب في كتاب الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية لأبي حيان التوحيدي دراسة تحليلية سيميائية ، رسالة ماجستير مخطوطة ، قسم اللغة العربية وآدابها جامعة العقيد الحاج لخضر باتنة 2002-2003 ص 98.

3- الأزهر الزنادي ، نسيج النص ، (بحث في ما يكون له الملفوظ نصاً) ، المركز الثقافي العربي ، 2000 ، ص 124.

4 - ينظر: ميشال فوكو ، حفريات المعرفة ، مبحث التشكيلة الخطابية(وحدات الخطاب) ، ص 10-35.

5 - مصطفى صادق الرافعي ، كتاب المساكين ، ص 22.

6 - ينظر: فهيمة لحلوحي ، استراتيجية الخطاب في كتاب الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية ، ص 98 .

* - من وساوس الفلسفة اليونانية القديمة أنهم يجعلون الأفلاك عشرة ويسمون كلا منها عقلا ، وقد أخذها عنهم فلاسفة العرب وزعموا العقل الإنساني من تحتها كلها. ينظر: مصطفى صادق الرافعي ، م ، س ، الهامش ، ص 23.

7 - م ، ن ، ص 23-24.

8 - م ، ن ، ص 25.

9 - م ، ن ، ص 145-146.

10 - ينظر: هاجر مدقن ، رسالة ماجستير ، الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه دراسة تطبيقية في كتاب المساكين لـ: الرافعي ، جامعة ورقلة ، الجزائر ، 2003 ، ص 134.

11 - فهيمة لحلوحي ، استراتيجية الخطاب في كتاب الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية لأبي حيان التوحيدي دراسة تحليلية سيميائية ، ص *99*.

12 - مصطفى صادق الرافعي ، كتاب المساكين ، ص 25.

13 - هاجر مدقن ، رسالة ماجستير ، الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه دراسة تطبيقية في كتاب المساكين لـ: الرافعي ص 72.

* - يحتوي الكتاب على حكايات عنونها الكاتب كما يلي: الشيخ علي ، في وحي الروح(التراب المتكلم أمام التراب الصامت)، الفقر والفقير ، مسكينة ، مسكينة ، لؤم المال ووهم التعاسة ، وهيم الحياة والسعادة ، سحق الوْلوْة الحظ الحرب ، على الكوكب الهاوي ، (حسناء أفقرتها الحرب فكيف تتلقاها الحقيقة)، الجمال والحب ، الفصل الأخير(الدين ولادة ثانية). ينظر: مصطفى صادق الرافعي ، كتاب المساكين ، الفهرس ، ص240.

14 - م ، ن ، ص 28.

15 - م ، ن ، ص 29.

16 - فهيمة لحلوحي ، استراتيجية الخطاب في كتاب الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية لأبي حيان التوحيدي دراسة تحليلية سيميائية ، ص102.

17 - عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها: تح: محمد أحمد حاد المولى على محمد البخاري محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل المولى على محمد البخاري- محمد أبو الفضل إبراهيم دار الجيل بيروت ، دار الفكر ، ج1 ، ص 332.

18 - ينظر: محمد خطابي ، لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 1991 ص19.

19 - ينظر: برتراند راسل ، ما وراء المعنى والحقيقة ، تر: محمد قدري عمارة ، مراجعة: إلهامي جلال عمارة ، مبحث: الجمل ، النحو وأجزاء الخطاب ، ط1 ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2005 ، ، ص 37.

20 - ينظر: فهيمة لحلوحي ، استراتيجية الخطاب في كتاب الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية لأبي حيان التوحيدي ، دراسة تحليلية سيميائية ، ص 103.

* - الاستمرارية: وهي قائمة على افتراض الأقوال المختلفة في النص والسياقات المحيطة بهم يربط كل منها الآخر وكل قول يساعد في الوصول إلى بعض الأقوال الأخرى. ينظر: فهيمة لحلوحي ، استراتيجية الخطاب في كتاب الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية لأبي حيان التوحيدي ، دراسة تحليلية سيميائية ، ص 103.

21 - مصطفى صادق الرافعي ، كتاب المساكين ، ص 33.

22 - فهيمة لحلوحي ، استراتيجية الخطاب في كتاب الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية لأبي حيان التوحيدي دراسة تحليلية سيميائية ، ص 104.

23 - مصطفى صادق الرافعي ، كتاب المساكين ، ص 35.

24 - فهيمة لحلوحي ، م ، س ، ص 105.

25 - مصطفى صادق الرافعي ، كتاب المساكين ، ص 23-24.

26 - هاجر مدقن ، الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه دراسة تطبيقية في كتاب المساكين لـ: الرافعي ، ص 79.

27 - ينظر: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمد الألوسي البغدادي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني دار الفكر ، بيروت ، 1983 ، ص 88.

28 - محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، دار البيضاء ، قسنطينة ، قصر الكتاب - البليدة ، الجزائر د.ت ، ج1 ص 27.

29 - فهيمة لحلوحي ، استراتيجية الخطاب في كتاب الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية لأبي حيان التوحيدي دراسة تحليلية سيميائية ، ص 106.

30 - واتيكي كميلة ، كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، بين سلطة الخطاب وقصدية الكتابة" مقاربة تداولية" ، ط1 ، دار قرطبة للنشر والتوزيع ، تماريس ، المحمدية ، 2004. ، ص 86.

31 - ينظر فهيمة لحلوحي ، م س ، ص 107.